أحاديث إصلاح القلوب

(٢٣)

خطورة الوساوس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ**». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**». رواه مسلم(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟!**». رواه البخاريُّ ومسلم(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟! فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**». رواه البخاريُّ ومسلم(٣).

وفي رواية لمسلم: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ**

---

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٤).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟! فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؛ فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»[١]. وزاد في رواية «**وَرُسُلِهِ**»[٢].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ، لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**». رواه أبو داود[٣].

وعَنْ أَبِي زُمَيْلٍ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللهِ مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟**» قَالَ: وَضَحِكَ، قَالَ: «**مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ**»، قَالَ: حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ الْآيَةَ [يونس:٩٤]، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾** [الحديد: ٣]». رواه أبو داود[٤].

هذه الأحاديث العظيمة فيها تنبيه إلى أمر عظيم يتعلَّق بإصلاح القلوب ومداواتها، ألا وهو صيانتها من هذه الوساوس والشُّكوك الَّتِي قد تهجم على

---

(١) رواه مسلم (١٣٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٤).

(٣) رواه أبو داود (٥١١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٤) رواه أبو داود (٥١١٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن الإسناد».

قلب العبد وتدخل بدون استئذان فيفاجأ المرء إذ بها قد ولجت إلى قلبه فماج بسببها في متاهات هذه الوساوس الممرضة للقلوب، وليتأمَّل المرء النَّاصح لنفسه من خلال هذه الأحاديث الحَلَّ الأمثل والسَّبيل الأقوم للسَّلامة من هذه الوساوس وكيفيَّة الخلاص منها.

وقد ذكر النَّبِيُّ ﷺ الدَّواء النَّافع، لهذ الوساوس المهلكة، وهي ثلاثة أشياء:

- الانتهاء عن هذه الوساوس الشَّيطانيَّة وعدم الاسترسال معها؛ لقوله: «**وَلْيَنْتَهِ**».
- والاستعاذة من شرِّ مَن ألقاها وشبَّه بها، ليضلَّ بها العباد عن صراط الله المستقيم؛ لقوله: «**فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ**».
- والاعتصام بعصمة الإيمان الصَّحيح الَّذِي مَن اعتصم به كان من الآمنين؛ لقوله: «**فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ**».

وأرشد ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لطرد هذه الوسواس أن يقرأ المسلم: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فإذا قرأها المسلم مستشعرًا معاني هذه الأسماء الحسنى، ففيها من تحقيق الإيمان وقوَّة اليقين ما يطرد الوساوس.

وذلك أنَّ الباطل يتَّضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها: العلم بمنافتها

للحقِّ، فإنَّ كلَّ ما ناقض الحقّ فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»(١). وفي رواية: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»(٢). أي: أنَّ حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهةِ العظيمة له ودفعهِ عن القلب هو من صريح الإيمان؛ كالمجاهد الَّذِي جاءه العدوُّ فدافعه حتَّى غلبه؛ فهذا أعظم الجهاد أن يبغض المرء هذه الوساوس ويعمل على طردها من قلبه.

والواجب على العبد أن يحترس من هذه الوساوس وممَّا تثمر من الأعمال، وما يكتسب القلب بعدها من الأحوال فإنَّ العمل السَّيِّئ مصدره عن فساد قصد القلب، ثمَّ يَعرض للقلب من فساد العمل قسوة فيزداد مرضًا على مرضه حتَّى يموت، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له، وكلُّ ذلك من انفعاله بوسوسة الشَّيطان وركونه إلى عدُوِّه الَّذِي لا يفلح إلَّا مَن جاهد نفسه على السَّلامة من وساوسه.

ثمَّ إنَّ العبد كُلَّما أقبل على الطَّاعة كان الشَّيطان عليه أحرص، ولهذا يعرض للنَّاس من الوساوس في الصَّلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يُصَلُّوا؛ لأنَّ

---

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

الشَّيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى رَبِّه والتَّقرُّب إليه والاتِّصال به؛ فلهذا يعرض للمُصَلِّين ما لا يعرض لغيرهم.

عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزِبٌ فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ؛ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**». قَالَ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي. رواه مسلم(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَنَمَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عَمَّارَ بنَ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دَخَلَ المَسْجِدَ فَصَلَّى، فَأَخَفَّ الصَّلَاةَ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا اليَقْظَانِ! لَقَدْ خَفَّفْتَ؛ قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَنِي انْتَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنِّي بَادَرْتُ بِهَا سَهْوَةَ الشَّيْطَانِ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا**». رواه أحمد(٢).

وذلك أنَّ الوسواس كلَّما قلَّ في الصَّلاة كانَ أكمل في ثوابها، وكلَّما زاد ضاعَ من صلاة العَبد بحَسْبه، فحاجَةُ العَبد إلى دفعِه ماسَّة؛ ليفُوز بأجر صلاتِه، فإنَّه ليس له مِن صلاتِه إلَّا ما عقلَ منها، والشَّيطان لا يريد له

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٣).

(٢) رواه أحمد (١٨٨٩٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٦٢٦).

تحصيل هذا الخير، والَّذي يُعينُ العبد على السَّلامة من هذه الوساوس الَّتِي تعرض للمرء في صلاته شيئان: قوَّة المقتَضي، وضَعف الشَّاغل. وقد فصَّل فيهما شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفصيلًا نافعًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أمَّا الأوَّل:** فاجتهاد العَبد في أن يعقلَ ما يقولُه ويفعَلُه، ويتدبَّر القراءةَ والذِّكر والدُّعاء، ويستَحضر أنَّه مُناجٍ لله تعَالى كأنَّه يراه، فإنَّ المصلِّي إذا كان قائمًا فإنَّما يُناجي ربَّه.

والإحسانُ: أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تَراه فإنَّه يراك، ثمَّ كلَّما ذاقَ العبدُ حلاوةَ الصَّلاة كانَ انجذابُه إليها أوكَد، وهذا يكونُ بحَسْب قوَّةِ الإيمان.

والأسبابُ المُقَوِّية للإيمان كثيرة؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١)، وفي حديث آخر أنَّه قال: «**أَرِحْنَا -يَا بِلَالُ- بالصَّلاةِ**»(٢). ولم يقل: أرحنا منها.

فإنَّ ما في القَلب من معرفة الله، ومحبَّته، وخشيته، وإخلاص الدِّين له، وخوفه، ورجائه، والتَّصديق بأخباره، وغير ذلك، ممَّا يتباين النَّاس فيه،

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، والنَّسائيُّ (٣٩٣٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

ويتفاضلون تفاضلًا عظيمًا، ويقوى ذلكَ كلَّما ازداد العبد تدَبُّرًا للقرآن، وفهمًا ومعرفةً بأسماء الله وصفاته وعظمَته، وتفقُّره إليه في عبادته واشتغالِه به، بحيثُ يجد اضطرارَه إلى أن يكون تعالى معبوده ومستغاثه أعظَم من اضطراره إلى الأكل والشُّرب؛ فإنَّه لا صلاح له إلَّا بأن يكونَ الله هُو معبوده الَّذي يطمئنُّ إليه، ويأنسُ به، ويلتذُّ بذكره، ويستَريح به، ولا حصولَ لهذا إلَّا بإعانة الله، ومتَى كانَ للقلب إلهٌ غيرُ الله فسدَ وهلكَ هلاكًا لا صلاحَ معه، ومتَى لم يُعِنه الله على ذلكَ لم يُصْلِحه، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا به، ولا ملجأَ ولا منجَا منه إلَّا إليه.

وأمَّا زوال العَارض: فهو الاجتهاد في دفع ما يُشْغل القلبَ مِن تفكُّر الإنسان فيما لا يَعنيه، وتدبُّر الجواذب الَّتي تجذب القلبَ عن مقصود الصَّلاة، وهذا في كلِّ عبد بحسبه، فإنَّ كثرةَ الوسواس بحَسب كثرةِ الشُّبهات والشَّهوات، وتعليقِ القَلب بالمحبوبات الَّتي ينصرفُ القلبُ إلى طلبها، والمكروهاتِ الَّتي ينصرفُ القلب إلى دفعِها.

والوساوس: إمَّا من قَبيل الحبِّ، مِن أن يخطر بالقَلب ما قَد كان؛ أو مِن قبيل الطَّلب، وهو أن يخطر في القَلب ما يريد أن يفعَله.

ومن الوساوس ما يكونُ من خواطر الكُفر والنِّفاق، فيتألَّم لها قلبُ المؤمن تألمًّا شديدًا، كما قال الصَّحابة: «**يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي**

نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: أَوَجَدْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ قَالَ: ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»(١).

قال كثير من العلماء: فكراهةُ ذلك وبغضُه وفرار القَلب منه هو صَريح الإيمان، والحمد لله الَّذي كان غاية كيد الشَّيطان الوسوسَة، فإنَّ شيطان الجنِّ إذا غلب وَسْوَس، وشيطان الإنس إذا غَلَب كَذَب، والوسواس يعرضُ لكلِّ مَن توجَّه إلى الله تعالى بذكرٍ أو غيرِه، لا بدَّ له من ذلك، فينبغي للعَبد أن يثبت ويصبر، ويلازم ما هو فيه من الذِّكر والصَّلاة ولا يضجر، فإنَّه بملازمة ذلك ينصرفُ عنه كيد الشَّيطان، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء:٧٦].

وكلَّما أراد العبد توجُّهًا إلى الله تعالى بقَلبه جاء منَ الوسواس أمورٌ أخرى، فإنَّ الشَّيطان بمَنزلة قاطع الطَّريق، كلَّما أراد العَبد أن يسير إلى الله تعالى أرادَ قطع الطَّريق عليه؛ ولهذا قيل لبَعض السَّلف: إنَّ اليهودَ والنَّصارى يقولون: لا نُوَسْوِس، فقال: صَدَقوا؛ وما يصنَعُ الشَّيطان بالبيتِ الخرِب»(٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والنَّاس في الصَّلاة على مراتب خمسة:**

---

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) ذكره شيخ الإسلام عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٨).

أحدها: مرتبة الظَّالم لنفسه المُفَرِّط وهو الَّذِي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثَّاني: مَن يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظَّاهرة ووضوئها، لكن قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثَّالث: مَن حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نَفْسَه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوِّه لئلَّا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

الرَّابع: مَن إذا قام إلى الصَّلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبُه مراعاةَ حدودها وحقوقها لئلَّا يُضَيِّع شيئًا منها، بل همُّه كلُّه مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأنَ الصَّلاة وعبوديَّة ربِّه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: مَن إذا قام إلى الصَّلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبَه ووضعه بين يدي ربِّه عزَّ وجلَّ ناظرًا بقبله إليه مراقبًا له ممتلئًا من محبَّته وعظمته كأنَّه يراه ويشاهده وقد اضمحلَّت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربِّه، فهذا بينه وبين غيره في الصَّلاة أفضل وأعظم ممَّا بين السَّماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربِّه عزَّ وجلَّ قرير العين به .

فالقسم الأوَّل معاقب، والثَّاني محاسب، والثَّالث مُكَفَّر عنه، والرَّابع مثاب، والخامس مُقَرَّب من ربِّه؛ لأنَّ له نصيبًا ممَّن جُعِلَت قُرَّة عينه في الصَّلاة فمَن قرَّت عينه بصلاته في الدُّنيا قرَّت عينه بقربه من ربِّه عَزَّوَجَلَّ في الآخرة»[١].

أصلح الله قلوبنا أجمعين وأعاذنا من الشَّيطان الرَّجيم.

(١) الوابل الصَّيِّب لابن القيِّم (ص٢٣).